اختلاؤه في غار حراء

ولما أخذت سنّه تدنو نحو الأربعين ، نشأ لديه حب للعزلة بين الفترة والأخرى ، وحبب الله إليه الاختلاء في غار حراء - وحراء جبل يقع في جانب الشمال الغربي من مكة - فكان يخلو فيه ، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر ، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى ويعود الكرة إلى غار حراء ، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك .

العبر والعظات :

إن لهذه الخلوة التي حببت إلى قلب رسول الله ﷺ قبيل البعثة ، دلالة عظيمة جداً ، لها أهمية كبرى في حياة المسلمين عامة والداعين إلى الله بصورة خاصة .

فهي توضح أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحلياً بالفضائل قائماً بألوان العبادات ، حتى يجمع إلى ذلك ساعات من العزلة والخلوة يحاسب فيها النفس ، ويراقب الله تعالى ، ويفكر في مظاهر الكون ، ودلائل ذلك على عظمة الله .

هذا في حق أي مسلم يريد لنفسه الإسلام الصحيح ، فكيف بمن يريد أن يضع نفسه موضع الداعي إلى الله والمرشد إلى الطريق الحق .

وحكمة ذلك أن للنفس آفات لا يقطع شرتها إلا دواء العزلة عن الناس ، ومحاسبتها في نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها . فالكبر ، والعجب والحسد ، والرياء ، وحبّ الدنيا ،

كل ذلك آفات من شأنها أن تتحكم في النفس وتتغلغل إلى أعماق القلب ، وتعمل عملها التهديمي في باطن الإنسان على الرغم مما قد يتحلى به ظاهره من الأعمال الصالحة والعبادات المبرورة ، ورغم ماقد ينشغل به ، من القيام بشؤون الدعوة والإرشاد وموعظة الناس . وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يختلي صاحبها بين كل فترة وأخرى مع نفسه ليتأمل في حقيقتها ومُنشئها ومدى حاجتها إلى عناية الله تعالى وتوفيقه في كل لحظة من لحظات الحياة ، ثم ليتأمل في الناس ومدى ضعفهم أمام الخالق عزّ وجلّ وفي عدم أي فائدة لمدحهم أو قدحهم ، ثم ليتفكر في مظاهر عظمة الله وفي اليوم الآخر وفي الحساب وطوله ، وفي عظيم رحمة الله وعظيم عقابه . فعند التفكير الطويل المتكرر في هذه الأمور تتساقط تلك الآفات اللاحقة بالنفس ويحيا القلب بنور العرفان والصفاء ، فلا يبقى لعكر الدنيا من سبيل إلى تكدير مرآته .

وشيء آخر له بالغ الأهمية في حياة المسلمين عامة وأرباب الدعوة خاصة : هو تربية محبة الله عزّ وجلّ في القلب . فهو منبع التضحية والجهاد وأساس كل دعوة متأججة صحيحة ، ومحبة الله تعالى لاتأتي من مجرد الإيمان العقلي به ، فالأمور العقلانية وحدها ما كانت يوماً ما لتؤثر في العواطف والقلوب . ولو كان كذلك ، لكان المستشرقون في مقدمة المؤمنين بالله ورسوله ، ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حبّاً لله ورسوله . أو سمعت بأحد من العلماء ضحى بروحه إيماناً منه بقاعدة رياضية أو مسألة من مسائل الجبر ؟!.

وإنما الوسيلة إلى محبة الله تعالى ـ بعد الإيمان به ـ كثرة التفكير في آلائه ونعمه والتأمل في مدى جلاله وعظمته ، ثم الإكثار من ذكره سبحانه وتعالى بالقلب واللسان . وإنما يتم كل ذلك بالعزلة والخلوة والابتعاد عن شواغل الدنيا وضوضائها في فترات متقطعة متكررة من الزمن .

فإذا قام المسلم بذلك وتهيأ له أداء هذه الوظيفة ، نبتت له من ذلك في قلبه محبة إلهية عارمة ، تجعله يستصغر كل عظيم ، ويحتقر كل مغرية من المغريات ، ويستهين بكل إيذاء وعذاب ، ويستعلي فوق كل إذلال أو استهزاء . فتلك هي العدة الكبرى التي ينبغي أن يتسلح بها الدعاة إلى الله ، وتلك هي العدة التي جهز الله بها حبيبه محمداً ﷺ ليقوم بأعباء الدعوة الإسلامية .

ذلك لأن الدوافع الوجدانية في القلب من خوف ومحبة ورجاء تفعل ما لا يفعله الفهم العقلي المجرد . ولقد أجاد الشاطبي رحمه الله حينما فرق في هذه الدوافع بين عامة المسلمين الذين دخلوا في ربقة التكاليف بدافع من عموم إسلامهم ، وخواصهم الذين دخلوا في ربقة هذه التكاليف يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل والفهم . يقول :

« فالضرب الأول حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام وعقد الإيمان من غير زائد ، والثاني حاله حال من يعمل بحكم غلبة الخوف والرجاء أو المحبة ، فالخوف سوط سائق ، والرجاء حاد قائد ، والمحبة تيار حامل ، فالخائف يعمل مع وجود المشقة ، غير أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على ما هو أهون وإن كان شاقاً . والراجي يعمل مع وجود المشقة أيضاً ، غير أن الرجاء في تمام الراحة يحمل على الصبر على تمام التعب . والمحب يعمل ببذل المجهود شوقاً إلى المحبوب ، فيسهل عليه الصعب ويقرب عليه البعيد ، وتفنى القوى ولا يرى أنه أوفى بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة »[٢٠] .

واتّخاذ الوسائل المختلفة لتحقيق هذه الدوافع الوجدانية في القلب مما أجمع المسلمون على ضرورته ، وهو ما يسمى بالتصوف عند جمهور العلماء والباحثين ، أو بالإحسان عند بعضهم ، أو بعلم السلوك عند بعض آخر كالإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى[٢١] .

والاختلاء الذي كان يمارسه ﷺ قبيل بعثته كان واحدة من هذه الوسائل لتحقيق هذه الدوافع نفسها .

بيد أنه لا ينبغي أن يفهم معنى الخلوة كما شذّ البعض ففهموها حسب شذوذهم ، وهو الانصراف الكلي عن الناس واتّخاذ الكهوف والجبال موطناً واعتبار ذلك فضيلة بحدّ ذاتها .

---

(٢٠) الموافقات للشاطبي : ١٤١/٢ ، وراجع كتاب (ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية) لمؤلف هذا الكتاب : ص ١١١ ـ ١١٢

(٢١) انظر الجزء العاشر من فتاوى الشيخ ابن تيمية رحمه الله ، لتجد قيمة التصوف الحقيقي عند هذا الإمام الجليل ، ولتعلم كم يفتري عليه أولئك الذين يحاولون ترويج باطلهم عن طريق إلصاقه باسمه .

فذلك مخالف لهديه ﷺ ولما كان عليه عامة أصحابه . إنما المراد هو استحباب اتخاذ الخلوة دواءً لإصلاح الحال كما ذكرنا ، والدواء لا ينبغي أن يؤخذ إلا بقدر ، وعند اللزوم ، وإلاّ انقلب إلى داء ينبغي التوقي منه . وإذا رأيت في تراجم الصالحين من استمر على الخلوة والابتعاد عن الناس ، فمردّ ذلك إلى حالة خاصة به ، وليس عمله حجة على الناس .

بدء الوحي

روى الإمام البخاري عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحي وتقول :

« أول مابدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال له اقرأ ، فقال ماأنا بقارئ ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربُّك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان مالم يعلم ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني ، زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل

وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وكان ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل في العبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : ياابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : ياابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس (أي جبريل أو الوحي) الذي نزل على موسى ياليتني فيها جذعاً (شاباً قوياً) ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أوَمخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي .

واختلف في الزمن الذي فتر فيه الوحي فقيل ثلاث سنوات ، وقيل أقل من ذلك ، والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر[٢٢] .

ثم روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : « بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني ، زملوني ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ ياأيُّها المُدثِّر ، قُمْ فأنْذِرْ ﴾ إلى قوله : ﴿ والرُّجْزَ فاهْجُرْ ﴾ فحمي الوحي وتواتر » .

---

(٢٢) راجع فتح الباري : ٢١/١

العبر والعظات :

حديث بدء الوحي هذا ، هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته . وفهمه واليقين به هما المدخل الذي لابدّ منه إلى اليقين بسائر ماجاء به النّبي ﷺ من إخبارات غيبية وأوامر تشريعية ذلك أن حقيقة (الوحي) هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رأيه وعقله ، والإنسان الذي يبلغ عن ربّه دون أن يغيّر أو ينقص أو يزيد .

من أجل هذا يهتم محترفو التشكيك بالإسلام ، بمعالجة موضوع الوحي في حياته ﷺ ، ويبذلون جهداً فكرياً شاقّاً ، في تكلّف وتمحل ، من أجل التلبيس في حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام ، وحديث النفس ، بل وحتى الصرع أيضاً . وذلك لعلمهم بأن موضوع (الوحي) هو منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد ﷺ من عند الله . فلئن أتيح تشكيكهم بحقيقته ، أمكن تكفيرهم بكل ماقد يتفرع عنه من عقائد وأحكام ، وأمكنهم أن يمهدوا لفكرة أن كل مادعا إليه محمد ﷺ من المبادئ والأحكام التشريعية ليس إلا من تفكيره الذاتي .

من أجل هذه الغاية ، أخذ محترفو الغزو الفكري ، يحاولون تأويل ظاهرة الوحي وتحريفها عما يرويه لنا المؤرخون وتحدث به صحاح السّنة الشريفة ، وإبعادها عن حقيقتها الظاهرة وراح كل منهم يسلك إلى ذلك ما يروق لخياله من فنون التصورات المتكلفة الغريبة .

فمن متصور بأن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يزل يفكر .. إلى أن تكونت في نفسه بطريقة الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء على الوثنية ، ومن مفضل على ذلك إشاعة القول بأنه ﷺ إنما تعلم القرآن ومبادئ الإسلام من بحيرا الراهب ، ومن قائل بأن الأمر ليس هذا ولا ذاك ولكن محمداً ﷺ كان رجلاً عصبياً أو مصاباً بداء الصرع(٢٣) .

---

(٢٣) راجع حاضر العالم الإسلامي : ٣٨/١ و ٣٩

ونحن حينما ننظر إلى مثل هذه التحلات العجيبة التي لا يرى العاقل مسوغاً لها إلا التهرب من الإقرار بنبوته عليه الصلاة والسلام ، ندرك في جلاء ووضوح الحكمة الإلهية الباهرة من بدء نزول الوحي عليه ﷺ بهذه الطريقة التي استعرضناها الآن ، في حديث الإمام البخاري .

لماذا رأى رسول الله جبريل بعيني رأسه لأول مرة ، وقد كان بالإمكان أن يكون الوحي من وراء حجاب ؟

لماذا قذف الله في قلبه عليه الصلاة والسلام الرعب منه والحيرة في فهم حقيقته ، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله وحفظه له يقتضي أن يلقي السكينة في قلبه ويربط على فؤاده فلا يخاف ولا يرتعد ؟ لماذا خشي على نفسه أن يكون هذا الذي تمثل له في الغار أتياً من الجن ، ولم يرجح على ذلك أن يكون ملكاً أميناً من عند الله ؟

لماذا انفصل الوحي عنه بعد ذلك مدة طويلة ، وجزع النّبي ﷺ بسبب ذلك جزعاً عظيماً حتى إنه كان يحاول ـ كما يروي الإمام البخاري ـ أن يتردى من شواهق الجبال ؟

هذه أسئلة طبيعية بالنسبة للشكل الذي ابتدأ به الوحي ، ولدى التفكير في أجوبتها نجدها تنطوي على حكمة باهرة ، ألا وهي أن يجد المفكر الحر فيها الحقيقة الناصعة الواقية عن الوقوع في شرك محترفي الغزو الفكري والتأثر بأخيلتهم المتكلفة الباطلة .

لقد فوجئ محمد عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له اقرأ ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مردّه إلى حديث النفس المجرد ، وإنما هي استقبال وتلقٍّ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات . وضمّ الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلاً في كل مرة : اقرأ ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقّي الخارجي ومبالغة في نفي ماقد يتصوّر ، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط .

ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأى ، حتى إنه قطع خلوته في الغار وأسرع عائداً إلى البيت يرجف فؤاده ، لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوفاً للرسالة التي سيُدعى إلى حملها وبثّها في العالم ، وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر في باله ، وإنما طرأت طروءاً مثيراً على

حياته ، وفوجئ بها دون أي توقع سابق . ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه ـ بطريقة الكشف التدريجي المستمر ـ عقيدة يؤمن بالدعوة إليها !..

ثم إن شيئاً من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية ، لا يستدعي الخوف والرعب وامتقاع اللون . وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية ، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى . وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة .

وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون ـ كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها والتمثيل بها ـ حتى لو فرضنا إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه عليه الصلاة والسلام ، وفرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثة إلى عكس ذلك .

ويتجلى مزيد من صورة المفاجأة المخيفة لديه ﷺ ، في توهمه بأن هذا الذي رآه وغطّه وكلّمه في الغار قد يكون أتياً من الجن ، إذ قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسي » أي من الجانّ . ولكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطوهم أذى الشياطين والجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة .

وقد كان الله عزّ وجلّ قادراً أن يربط على قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلّمه ليس إلا جبريل : ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس ، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها ، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن الرسول عليه الصلاة والسلام سابقاً ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً .

ثم إن فيما ألهم الله خديجة من الذهاب به عليه الصلاة والسلام إلى ورقة بن نوفل ، وعَرْض الأمر عليه تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجئ به عليه الصلاة والسلام إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله ، وإزالةً لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه .

أما انقطاع الوحي بعد ذلك ، وتلبّثه ستة أشهر أو أكثر ، على الخلاف المعروف فيه ، فينطوي على مثل المعجزة الإلهية الرائعة . إذ في ذلك أبلغ الرّد على ما يفسر به محترفو الغزو الفكري الوحي النّبوي من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتكرار ، وأنه أمر داخلي منبعث من ذاته نفسها .

لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء ، مدة طويلة ، وأن يستبدّ به القلق من أجل ذلك ، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن يكون الله عزّ وجلّ قد قلاه بعد أن أراد أن يشرّفه بالوحي والرسالة ، لسوء قد صدر منه ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه وراحت تحدثه نفسه ، كلما وصل إلى ذروة جبل ، أن يلقي بنفسه منها !.. إلى أن رأى ذات يوم الملك الذي رآه في حراء ، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول : « يا محمد أنت رسول الله إلى الناس » . فعاد مرة أخرى وقد استبدّ به الخوف والرعب إلى البيت ، حيث نزل عليه قوله تعالى : ﴿ ياأيُّها الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فأنْـذِرْ .. ﴾ [المدثر ١/٧٤ ـ ٢] .

إن هذه الحالة التي مرّ بها رسول الله ﷺ ، تجعل مجرّد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً ، ضرباً من الجنون ، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال .

إذن فإن حديث بدء الوحي على النحو الذي ورد في الحديث الثابت الصحيح ، ينطوي على تهديم كل ما يحاول المشككون تخييله إلى الناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام . وإذا تبين لك ذلك أدركت مدى الحكمة الإلهية العظيمة في أن تكون بداءة الوحي على النحو الذي أراده عزّ وجلّ .

وربما عاد بعد ذلك محترفو التشكيك ، يسألون : فلماذا كان ينزل عليه ﷺ الوحي بعد ذلك وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملكَ أحد منهم سواه ؟

والجواب : أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأبصار ، إذ إن وسيلة الإبصار فينا محدودة بحدّ معين ، وإلاّ لاقتضى ذلك أن يصبح الشيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته . على أن من اليسير على الله جلّ جلاله ـ وهو الخالق لهذه

العيون المبصرة ـ أن يزيد في قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى ، يقول مالك بن نبي في هذا الصدد :

« إن عمى الألوان مثلاً يقدم لنا حالة نموذجية ، لا يمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون ، وهنالك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا ، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون ، فقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية »[٢٤] .

ثم إن استمرار الوحي بعد ذلك يحمل الدلالة نفسها على حقيقة الوحي وأنه ليس كما أراد المشككون : ظاهرة نفسية محضة . ونستطيع أن نجمل هذه الدلالة فيما يلي :

١ ـ التمييز الواضح بين القرآن والحديث ، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً ، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه ، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنّبوة به ، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام . أما الحديث فمعناه وحي من الله عزّ وجلّ ، ولكن لفظه وتركيبه من عنده عليه الصلاة والسلام ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عزّ وجلّ الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو .

٢ ـ كان النّبي ﷺ يُسأل عن بعض الأمور ، فلا يُجيب عليها ، وربّما مرّ على سكوته زمن طويل ، حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال ، طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأن سؤاله . وربما تصرف الرسول في بعض الأمور على وجه معين ، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عتب أو لوم له .

٣ ـ كان رسول الله ﷺ أميّاً .. وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية ، كقصة يوسف .. وأم موسى حينما ألقت وليدها في اليمّ .. وقصة فرعون .. ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أميّاً : ﴿ وما كُنتَ تَتلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارتابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٤٨] .

---

(٢٤) الظاهرة القرآنية : ١٢٧

٤ ـ إن صدق النّبي ﷺ أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك ، يستدعي أن يكون ﷺ ، من قبل ذلك ، صادقاً مع نفسه ، ولذا فلابدّ أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شك يخايل لعينيه أو فكره .

وكأن هذه الآية جاءت رداً لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي : ﴿ فإنْ كُنتَ في شكٍّ مِمّا أنْزَلْنا إليكَ فاسألِ الَّذينَ يَقْرؤونَ الكتابَ مِنْ قَبْلِكَ . لَقَدْ جاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تكونَنّ مِنَ المُمْترينَ ﴾ [يونس ١٠/٩٤] .

ولذا روي أن النّبي ﷺ قال بعد نزول هذه الآية : « لاأشك ولا أسأل »[٢٥] .

---

(٢٥) رواه ابن كثير عن قتادة .

مراحل الدّعوة الإسلاميّة في حياة النّبي ﷺ

مرّت الدّعوة الإسلامية في حياته عليه الصلاة والسلام ، منذ بعثته إلى وفاته بأربع مراحل :

المرحلة الأولى : الدّعوة سرّاً ، واستمرت ثلاث سنوات .

المرحلة الثانية : الدّعوة جهراً ، وباللسان فقط ، واستمرت إلى الهجرة .

المرحلة الثالثة : الدّعوة جهراً ، مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشّر ، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية .

المرحلة الرابعة : الدّعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإسلام - بعد فترة الدعوة والإعلام - من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين .

وكانت هذه المرحلة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية وقام عليها ، حكم الجهاد في الإسلام .

الدّعوة سرّاً

بدأ النّبي ﷺ يستجيب لأمر الله ، فأخذ يدعو إلى عباده الله وحده ونبذ الأصنام ، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرّاً حذراً من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها ، فلم يكن

عليه الصلاة والسلام يظهر الدّعوة في المجالس العمومية لقريش ، ولم يكن يدعو إلا من كانت تشدّه إليه قرابة أو معرفة سابقة .

وكان في أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء : خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام ومتبنّاه ، وأبو بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان ، والزُّبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص .. وغيرهم ، رضي الله عنهم جميعاً .

فكان هؤلاء يلتقون بالنّبي ﷺ سرّاً ، وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها عن أنظار قريش .

ثم لما أربى الذين دخلوا في الإسلام على الثلاثين ـ ما بين رجل وامرأة ـ اختار لهم رسول الله ﷺ دار أحدهم ، وهو الأرقم بن أبي الأرقم ، ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم ، وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة دخلوا في الإسلام ، عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن له بين قريش[1] .

العبر والعظات :

١ ـ وجه السرّيّة في بدء دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام :

لا ريب أن تكتُّم النّبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام ، خلال هذه السنوات الأولى ، لم

(١) راجع للتوسع في هذا البحث سيرة ابن هشام : ١/٢٤٩ ـ ٢٦١

يكن بسبب الخوف على نفسه ، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ يـاأيُّها الْمُدَّثِّرْ . قُمْ فأَنْذِرْ .. ﴾ علم أنه رسول الله إلى الناس ، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذي ابتعثه وكلّفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس ، على أن الله عزّ وجلّ لوأمره من أول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً ، لما توانى عن ذلك ساعة ، ولو كان يتراءى له في ذلك مصرعه .

ولكن الله عزّ وجلّ ألهمه ـ والإلهام للرسول نوع من الوحي إليه ـ أن يبدأ الدعوة ، في فترتها الأولى ، بسرّيّة وتكتُّم ، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصيخ لها ويؤمن بها ، تعليماً للدُّعاة من بعده ، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة ، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها . على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتّكال على الله وحده ، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصوُّره وتفكيره . فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى ، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام .

ومن هنا تدرك ، أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام ، في هذه الفترة ، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً ، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيّاً .

وبناءً على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية ، في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة ـ من حيث التكتُّم والجهر ، أو اللين والقوة ـ حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه ، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية ، اعتماداً على واقع سيرته ﷺ ، ضمن الأشكال أو المراحل الأربعة التي سبق ذكرها ، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية .

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدّة بحيث يغلب الظن أنهم سيُقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم ، إذا ما أجمعوا قتالهم ، فينبغي ، أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس ، لأن المصلحة المقابلة وهي مصلحة حفظ الدِّين موهومة أو منفيّة الوقوع .

ويقرّر العزّ بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلاً :

« فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام ، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام ، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ، ليس في طيّها مصلحة »[٢] .

قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا ، من حيث الظاهر فقط .

أمّا من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد ، فإنها في الواقع مصلحة دين ، إذ المصلحة الدّينية تقتضي ـ في مثل هذه الحال ـ أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى . وإلاّ فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدّين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السُّبل .

والخلاصة : أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضرّ بها ، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيداً ، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها ، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين في عقر دورهم إذا ماتوفرت وسائل ذلك وأسبابه .

٢ ـ الأوائل الذين دخلوا في الإسلام والحكمة من إسراعهم إلى الإسلام قبل غيرهم :

وتحدثنا السّيرة أن الذين دخلوا في الإسلام ، في هذه المرحلة ، كان معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء ، فما الحكمة في ذلك ؟ وما السّر في أن تتأسس الدولة الإسلامية على أركان من مثل هؤلاء الناس ؟

والجواب : إن هذه الظاهرة هي الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولى ، ألم ترَ إلى قوم نوح كيف كانوا يعيّرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم : ﴿ مانَراكَ إلا بَشراً مثلَنا وما نَراكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الّذينَ هُمْ أراذِلُنا باديَ الرَّأيِ .. ﴾ [هود ٢٧/١١] . وإلى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون أتباع موسى أذلاء مستضعفين ، حتى

---

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام : ٩٥/١ ، وانظر ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية للمؤلف : ٢٦١

قال عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه : ﴿ وأورَثْنا القوم الَّذينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الأرْضِ ومَغَارِبَها الَّتي بارَكْنا فيها ﴾ [الأعراف ١٣٧/٧] . وإلى ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً ، كيف تولى عنه الزعماء المستكبرون ، وآمن به الناس المستضعفون ، حتى قال الله في ذلك : ﴿ قَالَ الملأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمونَ أنَّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قالوا إنّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مؤمِنُونَ ، قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥/٧ - ٧٦] .

والسّرُّ في ذلك ، أن حقيقة هذا الدّين الذي بعث الله به عامة أنبيائه ورسله ، إنما هي الخروج عن سلطان الناس وحكمهم إلى سلطان الله وحكمه وحده . وهي حقيقة تخدش أول ما تخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين ، وتناسب أول ماتناسب حالة المستضعفين والمستذلّين والمستعبدين ، فيكون ردّ الفعل أمام الدعوة إلى الإسلام لله وحده هو المكابرة والعناد من أولئك المتألهين والمتحكمين ، والإذعان والاستجابة من هؤلاء المستضعفين ، وانظر ، فإن هذه الحقيقة تتجلى لك بوضوح في الحديث الذي دار بين رستم قائد الجيش الفارسي في وقعة القادسية ، وربعي بن عامر الجندي البسيط في جيش سعد بن أبي وقاص . فقد قال له رستم :

« ماالذي دعاكم إلى حربنا والولوع بديارنا ؟

فقال : جئنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ثم نظر إلى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله ، فقال متعجباً :

لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولكني لاأرى قوماً أسفه منكم ، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضاً ، ولقد ظننت أنكم تتواسون كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب لبعض ..

فالتفت الدهماء المستَضعفون إلى بعضهم يتهامسون : « صدق والله العربي » .

أما القادة والرؤساء فقد وجدوا في كلام ربعي هذا ما يشبه الصاعقة أصابت كيانهم فحطمته ، وقال بعضهم لبعض : « لقد رمى بكلام لاتزال عبيدنا تنزع إليه »[٣] .

(٣) انظر تفصيل هذه القصة في كتاب : إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، تأليف محمد الخضري : ١٠٠

ولا يعني هـذا الكـلام أن المستَضعفين الـذين أسرعـوا إلى الإسـلام قبـل غيرهم لم يكن دخولهم فيه عن إيمان بل عن قصد ورغبة في التخلص من أذى المستكبرين وسلطانهم . ذلـك لأن الإيمان بالله وحده والتصديق بما جاء بـه محـمـد عليـه الصلاة والسلام ، كان قـدراً مشتركاً بين زعماء قريش ومستضعفيهـا ، فـما منهم أحـد إلا وهو يعلم صـدق النّبي ﷺ فيما يخبر عن ربّه ؛ غير أن الزعماء والكبراء فيهم كانت تصدّهم زعامتهم عن الانقياد والاتّبـاع لـه ، وأجلى مثل على ذلك عمه أبو طالب . وأما الفقراء والمستَضعفون فـما كان ليصـدهم عن التجـاوب مع إيمانهم والانقياد له عليه الصلاة والسلام شيء . أضف إلى ذلك ما يشعر به أحدهم عنـد إيمـانـه بألوهية الله وحده من الاعتزاز به وعدم الاكتراث بسلطـان غير سلطـانـه أو قوة غير قوتـه . فهذا الشعور الذي هو ثمرة للإيمان بالله عزّ وجلّ ، يزيده في الوقت ذاته قوة ويجعل صاحبه في نشوة وسعادة غامرة .

ومن هنـا نعلم عظم الفريـة التي يفتريهـا بعض محترفي الغـزو الفكري في هـذا العصر ، حينما يزعمون بأن الدعوة التي قام بها محمد ﷺ ، إنمـا هي من وحي بيئتـه العربيـة نفسهـا ، وأنها إنما كانت تمثل حركة الفكر العربي إذ ذاك .

فلو كان كذلك ، لما كان رصيد هذه الـدعوة بعـد سنوات ثلاث من بـدايتهـا ، أربعين رجلاً وامرأة ، معظمهم من الفقراء والمستَضعفين والموالي والأرقاء ، وفي مقـدمتهم أخلاط من مختلفي الأعاجم : صهيب الرومي ، وبلال الحبشي .

وسوف تجد في البحوث القادمة أن بيئته العربية نفسها هي التي أرغمتـه على الهجرة من بلاده وأرغمت أتباعه من حوله على التفرق هنا وهناك والخروج إلى بلاد الحبشة مهـاجرين ، وذلك كراهيةً منها للدعوة التي زعموا أنه إنما كان يمثل بها نوازعها وأفكارها .

الجهر بالدعوة

قـال ابن هشـام : « ثم دخـل النـاس في الإسـلام أرسـالاً من النسـاء والرجال حتى فشـا ذكر الإسلام بمكـة وتُحـدّث بـه . فـأمر الله رسولـه أن يصدع بما جـاءه من الحق ، وأن يبـادي النـاس بـأمره وأن يـدعو إليـه ،